حكاية ما جرى ليلة ١٧ تموز ١٩٦٨

حفلة شاي امام نافورة الدم

صادق مشعل

هذه هي المرة الثانية في تأريخ العراق التي لا تجري فيها (الاحتفالات) مرسومة تفاصيلها مسبقاً بـ(ثورة) ٣٠/١٧ تموز فقد حدث في ذلك اليوم انقلاب انهى تحركاً جماهيرياً يسعى نحو الديمقراطية وتحالفات بدأت بين قوى وطنية متعددة للعمل الجماهيري.

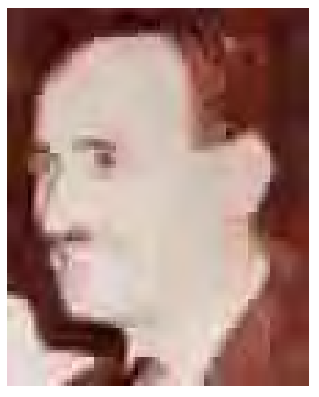

ويهمنا هنا ان نستذكر ما جرى في تلك الليلة السوداء من تاريخ العراق وما سبقها من احداث حيث تسلل الى الواجهة السياسية خلالها وبعدها صدام حسين من بين تحالفات وتواطؤات مشبوهة وحفلات اعدام تمت بليل لعناصر متعددة لتزيح الطريق تدريجياً امامه للقفز الى سدة الرئاسة والتمكن من رقاب العباد ومقدرات البلاد.

لم يكمل صدام الثانوية في مصر منحوه الشهادة هناك ولم يكمل صدام الدراسة الجامعية ببغداد عندما اصبح نائباً بل منحوه شهادة الحقوق مضطرين وفوقها - بعد سنوات - شهادة الدكتوراة الفخرية فيها ولو منحوه دكتوراه اخرى في كيفية القتل بـ (الاسيد) وبدهم السيارات وبواسطة الكلاب المتوحشة لكان افضل.

هذه المرة الثانية التي لا تجري فيها احتفالات كاذبة في العراق بذكرى انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ المصبوغ بالبياض زوراً، مثل بركة دماء مغطاة بشرشف ابيض كبير، لقد اسماه احمد حسن البكر، احد (العقول) المدبرة له بـ(الثورة البيضاء) تمييزاً له عن انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الدموي الذي بدأ بالهجوم على وزارة الدفاع عرين الزعيم الركن عبد الكريم قاسم قائد ١٤ تموز مروراً بحفلة الاعدام الدموية في الاذاعة في اليوم التالي حيث قتل (ثوار رمضان) عبد الكريم قاسم وفاضل المهداوي وكنعان حداد وطه الشيخ احمد بعد (محاكمة) صورية سريعة ثم باشروا بهدر المزيد من دماء العراقيين والعراقيات من شيوعيين وديمقراطيين غير منتمين ومؤيدين لعبد الكريم، وعرف العراق لأول مرة تجربة الحرس القومي الدموية واعتقال الناس بدون اذن والطرد من الوظائف والانكر من ذلك اعتقال الآنسات والسيدات وتعذيبهن والاعتداء الجنسي عليهن ثم اعدامهن.. كانت تجربة مريرة عاشها العراقيون عدة اشهر مظلمة كان البكر فيها رئيساً للوزراء وكان علي صالح السعدي نائباً له وهو سكرتير عام الحزب الذي صرح فيما بعد في بيروت بعد ١٨ تشرين ١٩٦٣ انهم جاءوا بقطار امريكي، وذلك التصريح موثق في الادبيات المكتوبة عن هذه التجربة المرة وفي اعلان السعدي الصريح في خطابه في ملعب الجامعة الامريكية ببيروت في كانون الاول ١٩٦٣.

المهم ان العراقيين صحوا من تجربة رمضان الدموية على انقلاب عبد السلام عارف رئيس الجمهورية على البعثيين يوم ١٨ تشرين الثاني وقبول احمد حسن البكر بمنصب نائب رئيس الجمهورية ثم اعلانه اعتزال السياسة برسالة موثقة وموقعة حيث استلمت الحكم طائفة من الضباط والساسة الاقل شراسة ودموية والاقرب الى فهم الواقع العراقي الساعي نحو السلام والعدالة الاجتماعية ولكن بسلام تقرره الطبقة الحاكمة وبعدالة تراها هي وتفصلها على مقاساتها ولا تعطي الجماهير منها شيئاً.

ماذا عن انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ ونحن نتحدث عن انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣؟ (السائقة) مترابطة، وما كرهه العراقيون من سفك دماء وبروز قوى وانهيار اخرى وسيطرة شاملة للبعثيين في ١٩٦٣ عاد مرة اخرى في تموز ١٩٦٨ بأسماء قيادة جديدة - قديمة فقد غير مدرب الفريق بعض اللاعبين والبس الفريق زياً اخضر هذه المرة بدلاً من الزي الاحمر الملون بالاسود وجعل في ذلك الزي الاخضر خطوطاً بيض وكتب على ظهر كل لاعب (فريق الثورة البيضاء) ثم دخلوا ساحة اللعب وسط وجوم الجماهير وخوفها وعدم اطمئنانها للذي يحدث.

رئيس الجمهورية عبد الرحمن محمد عارف لم يعتقل ولم يقتل مثلما فعلوا بعبد الكريم قاسم بل ركب طائرة مع عائلته سافرت به الى لندن ثم تركيا حسب اختياره واعتقالات كبيرة لم تحدث الا لبعض الوزراء ورئيسهم طاهر يحيى وغيره.

كيف دخلوا القصر الجمهوري؟

يصف (منفذو ١٧-٣٠ تموز) انفسهم بالثوار وهم دخلوا القصر الجمهوري بدبابتين وسيارة وكان عدد الذين يعرفون فعلاً بحركتهم من كل العراقيين ومن اعضاء حزبهم ١٣٧ شخصاً بينهم عبد الرحمن الداود امر الحرس الجمهوري والدرع العراقي لرئيس الجمهورية عبد الرحمن محمد عارف (وهو ابن رجل دين من هيت) وعبد الرزاق النايف معاون رئيس الاستخبارات العسكرية (من مواليد الفلوجة ومن قبيلة الجميلة من ابناء عمومة عارف) وسعدون غيدان امر كتيبة في الحرس الجمهوري الموكل بالباب النظامي ذلك المساء وفاروق عمر الكتيبة الثانية وصديق النايف - الداود- غيدان كان هؤلاء الضباط هم الذين فتحوا الباب للبكر ورجاله من امثال د. عبد الله سلوم السامرائي عضو القيادة القومية والمرحوم عبد الخالق السامرائي وصالح مهدي عماش وحردان عبد الغفار وناظم كزار وطه الجزراوي وصدام حسين واخيه غير الشقيق برزان التكريتي وسواهم، وكان خوف هؤلاء شديداً من رجال السلطة العارفية الضعفاء حتى انهم اعتقلوا شرطي مرور كان يقوم بواجبه في الشارع واصعدوه معهم في سيارة خشية ان يحذر من هم في الحكم.كان احمد حسن البكر قد بدأ سعيه الى السلطة منذ ايلول ١٩٥٨ حيث شارك في حركة سرية ضد حكم الزعيم الركن (العميد) عبد الكريم قاسم والقى القبض عليه واحيل الى التقاعد برتبة عقيد وظل يدخن سجائر اللف ويشترك في نشاطات القوميين والبعثيين طمعاً في الحصول على فرصة اخرى حققها على يد علي صالح السعدي امين السر الجديد الذي اختاره لرئاسة الوزراء في ٨ شباط ١٩٦٣، وقد ادعى بعد حركة ١٨ تشرين التي قادها عبد السلام عارف رئيس الجمهورية ضد البعثيين ابتعاده عن السياسة وانصرافه الى شؤونه الخاصة بإعتراف موقع نشر بخطه في صحف بغداد لكنه عاد وشارك البعثيين في تجربتهم الدموية الطويلة الثانية في انقلاب ١٧ تموز متفقاً هذه المرة مع عدة قوى سياسية يمينية بينهم جماعة المقدم عبد الرزاق النايف الذي مكنهم من دخول القصر الجمهوري ومع جماعة الاخوان المسلمين وزعيمهم د. عبد الكريم زيدان استاذ القانون الذي اصبح عضواً في وزارة البكر الاولى بعد الانقلاب حيث اصبح وزيراً للاوقاف ومع عدد من المحسوبين على التيارات القومية مثل د. طه الحاج الياس وزير الثقافة وعبد المجيد الجميلي وزير الاصلاح الزراعي.

تحالف غيدان - النايف- الداود

استطاع تحالف غيدان - النايف - الداود ان ينتهز فرصة غياب سعيد صليبي قائد موقع بغداد (المسافر الى لندن في رحلة علاج) ليتفق عن طريق النايف مع مجموعة البكر - حردان - عماش البعثية للوثوب الى السلطة ولم يكن ثمة طريق امام البكر للوصول - هذه المرة- لا الى كرسي رئاسة الوزارة بل الى كرسي رئاسة الجمهورية سوى هذا المنقذ على امل ان يتغدى بالنايف قبل ان يتعشى به.. هكذا كانت النوايا في الصدور بمعزل عن ارادة الشعب.

كلام عبد الرحمن عارف

قال عبد الرحمن محمد عارف في منفاه بتركيا للباحث حنا بطاطو (ان حجبه امتياز الكبريت عن شركة بان - امريكان شكل بنداً آخر سجلوه على حسابه وفي النهاية وجدوا ان النايف هو الرجل الذي يحتاجون اليه فإشتروه من خلال العربية السعودية وبواسطة الوسيط بشير الطالب الملحق العسكري في بيروت والقائد السابق للحرس الجمهوري وناصر الحاني السفير العراقي في بيروت). وقال عارف ذلك مؤكداً لبطاطو انه يقول هذا على معرفة وليس بناء على مجرد شكوك.

وكان عبد الرحمن الداود الذي اعتمد عليه النايف في تشكيل تحالف بينهما ضمن كتلة الانقلابيين متأثراً بالتيار الاسلامي وخائفاً من التكتل الناصري الذي كان يعمل من جديد للوصول الى الحكم لذلك دخل في تحالف مع النايف والبكر للقيام بالحركة والحصول على منصب وزير الدفاع تمهيداً لوثوبه هو والنايف وغيدان الى القيادة الامامية والتخلص من عصبة البعث كما تخلص منهم عبد السلام عارف قبل هذا.في الساعة المتفق عليها وهي الثانية بعد منتصف الليل ليلة ١٦/ ١٧ ادخل سعدون غيدان بسيارته الخاصة الى مقر كتيبة دبابات الحرس الجمهوري التي كان يقودها كل من احمد حسن البكر وحردان التكريتي وصالح مهدي عماش وانور عبد القادر الحديثي وسيطروا على مقدرات الكتيبة التي كانت اساساً تحت امرة غيدان واحتل الداود مبنى الاذاعة وسيطر عبد الرزاق النايف على وزارة الدفاع. عندما اوقظ الرئيس عارف الساعة ٣,٣٠ فجراً كان طاهر يحيى رئيس الوزراء وغيره من كبار الشخصيات رهن الاعتقال وبعد حوار تلفوني بين عارف- النايف وعارف- البكر ادرك عبد الرحمن عارف ان كل شيء قد انتهى بهدوء وان بطانته باعته الى سواه.وسارعت خمس اطلاقات تحذيرية له من الدبابات المحيطة بالقصر في استسلامه وسفره بعد ساعات مع زوجته المريضة الى بريطانيا ومن هناك الى تركيا.

خشية الجماهير وترقبها

كان البيان الاول للانقلاب غامضاً بدأ بآيات قرآنية ووعد بالسلام في كردستان وتحقيق العدالة الاجتماعية وخدمة الشعب وما الى ذلك من عبارات عامة طنانة لا تكشف عن النوايا، وبقدر عدم فرح الجماهير او حزنها برحيل عارف فإنها استقبلت تعيين البكر رئيساً للجمهورية بكثير من الحذر والتخوف من مآس قادمة فقد كانت تجربة العراقيين مع زمرة البعث مريرة ولا تريد تكرارها، وكان البعث اليميني (وهو مصطلح سياسي عراقي يطلق على جناح (عفلق - البكر) مكروهاً بين الناس وقد استطاع تيار سوريا ان يحصل على بعض التعاطف لإستنكاره مجازر الشيوعيين والديمقراطيين وعقده اتفاقات سياسية انتخابية للنقابات وغيرها ضد مجموعة عفلق.

دور صدام الثانوي

ولم يكن لصدام حسين دور متميز في كل هذه المعمعة اذ لم يكن سوى تابع للبكر يأتمر بأمره وكل البطولات المزيفة التي نسبها لنفسه تمت بعد تصفية مجموعة النايف- الداود في الثلاثين من تموز حيث ابعد النايف الى لندن والداود الى اسبانيا ونقل الضباط التابعون لهما الى مواقع غير مؤثرة وتمت عملية التصفية غير الدموية حتى الآن لتبدأ بعدها عمليات اغتيالات واسعة نفذها جهاز (حنين) الذي كان يقوده سعدون شاكر - ناظم كزار فأغتيل ناصر الحاني وزير الخارجية السابق في بيروت وقتل بشير الطالب واغتيل عدد من العناصر الشيوعية بأمر من صدام حسين نفسه وبتنفيذ مباشر من ناظم - شاكر.

حوار التاريخ

يسوقنا حوار التاريخ مع هذا الانقلاب التموزي طويلاً لكننا اردنا ان نثبت ان صدام حسين لم يكن الرجل الاول ولا الثاني في كل ما جرى وان تصفيات كثيرة قد تمت قبل ان ترتفع اسهمه فقد ثم ابعاد الرجل القوي حردان التكريتي من منصبه كوزير دفاع واغتياله في الكويت وثم ابعاد صالح عماش وزير الداخلية واغتيال حماد شهاب وزير الدفاع واغتيال عضو القيادة القطرية عبد الوهاب كريم تبع ذلك اغتيال مساعده في الحلة عامر الدجيلي واستمر مسلسل الاغتيالات عن طريق الخنجر والرصاصة وانقلاب السيارة بالمغدور سمة ثابتة لصدام حسين فقد اغتيل وزير الخارجية عبد الكريم الشيخلي لخلاف مع صدام وتمت تصفيات دموية اخرى للشيوعيين والبعثيين غير المتعاونين مع صدام - البكر حتى وصل التهديد بالموت للبكر ذاته فإختار بعد كل هذه السنوات من الدسائس والمناورات الاستقالة بحجة المرض وعارض محمد محجوب وعدنان الحمداني ومحمد عايش وغيرهم ذلك كما عارضوا اختيار صدام بديلاً فكان الاعدام جزاؤهم في حفلة شاي خاصة بالبعثيين انفسهم وبدأت كارثة اخرى من كوارث صدام الدموية اعقبتها كارثة الحرب ضد الجارة ايران.

٣٥ عاماً انتهت

نعم، ٣٥ عاماً انتهت كان صدام فيها ملكاً غير متوج يقتل عند الظن والشبهة ويصفي من رجاله ومن المواطنين من يريد ولأي سبب، وعندما تهدأ الامور يقوم بالضحك على وزرائه وقيادته القطرية نفسها فيهين من رجال حمايته من يعتدي على هذا او ذاك منهم ليجلب لنفسه الانس والمرح، وهكذا تعرض طه ياسين الجزراوي وسمير الشيخلي والصحاف وغيرهم الى الضرب من قبل رجال الحماية ضمن رغبة صدام وارادته، وبتلك النفسية السادية المدمرة تعامل مع العراقيين طيلة مدة حكمه الدموي الذي انتهى غير مأسوف عليه وانتهت معه الاحتفالات الخاصة بأعياد الثورة (البيضاء) صورة وكياناً وعلينا الآن الا نفكر بصنم آخر وان نستعيد امننا المفقود ونمسك بتلابيب مظاهر الحرية وان تعي الجماهير دورها والا نترك لفئة دون اخرى الاستفراد بالملايين العراقية مرة اخرى والا تعود نافورة الدم العراقي مرة اخرى.